

الفصل الثالث
مشكلات متجددة.

المبحث الأول: الوحي:

توجد اختلافات بين الأديان في طبيعة الوحي ووسائله، كما توجد أشكال متنوعة للوحي، منها أسلوب الوحي التقليدي: اليهودي - المسيحي - الإسلامي، وهناك اختلافات ليست بالقليلة بين الديانات الإبراهيمية التي تنتمي إلى مسار واحد من حيث النشأة، لكنها اتخذت أثناء نموها وتجليها في التاريخ طبائع مختلفة تصل أحياناً إلى حد التعارض.^(١)

وهناك أديان أخرى لا تلجأ إطلاقاً إلى الوحي، كالبودية التي تبدأ من نقطة قيام بشرية محضة هي إلهام الحكيم بوذا.

" إن تأسيس أي دين لابد أن يتم عبر كتاب مقدس، وهذا الكتاب هو الوحي الإلهي في شكله المقروء أو المسموع في المراحل الشفهية لبعض الكتب المقدسة".^(٢)

ويتكون الوحي كرسالة من أربعة مكونات رئيسة هي: مرسل ومستقبل ووسيط ورسالة، جوهر النبوة هو نقل الرسالة، وهذا ما أكده القرآن الكريم حين قال للرسول في المرحلة المدنية: " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَخَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" (المائدة: ٦٧) وفي تلك الآية حثُّ من المرسل إلى المستقبل بضرورة التبليغ للناس، فإن كان الناس على ضلالة وانحرف بشكل معين لا يستقيم مع المرجو منهم لتحقيق الخلاص الأخرى، فلا بد من تبليغهم مراد الله تعالى ليحقق لهم الخلاص المنشود، وهذه الفكرة نجدتها في أغلب الكتب والرسالات الدينية، وقد يكون الرسول في حالة من الخشية والخوف من أن يصدم قومه بأوامر جديدة تنهاتهم عن لذائذهم، فالخطاب يجئ مشدداً عليه بضرورة إعلام الناس بمطلوب ربهم ، وقد مرر بنا وجود مراجعات كثيرة بين المستقبل والمرسل في أمور تعبدية كالصلاة التي كانت ٥٠ ، وبعد عدة مراجعات صارت ٥ فقط.

١ - لا يخفى في هذا السياق أن قصة الإيمان بالوحي في ذاتها هي قصة الإيمان بالنبوة ، فهو إسرائيل (اليهود والنصارى) لا يعترفون بأن الله أوحى إليهم (ص) ولو أمروا بذلك لانتفى العارضين بينهما تماماً، وكذا يوجد الكثير من الأعراب لا يرون أن هناك وحياً تنزل على قلب الرسول كما أتباع في أتباعه، ومن ثم لجأوا إلى الإقراء كطلحة بن خالد (صعروا اسمه وقالوا طلحة بن حويلد لادعاه النبوة)، ومسيلمة الكتاب وبعض المسلمين التعميم في مرحلة الصراع على الخلافة والحكم ، وهذه قصة لها دراسة أخرى ، ليس مكانها هنا

٢ - محمد عثمان المشتت للوحي معاني أخرى ، الهيئة العامة للقصور الثقافية ، ٢٠١٢م ص ١١

وهناك من الباحثين من يفرّق بين طبيعة الوحي الإبراهيمي قبل محمد(ص) موسى - عيسى، وبين محمد، فقد كان الوحي قبل الإسلام إصغاءً، وسنجد أن اليهود لما سألوا عن الوسيط الذي ينزل على الرسول بالرسالة وعلموا أنه جبريل أنكروه وأكدوا أنه عدوهم، وفي هذا تنزل الوحي قائلاً: " قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ " (البقرة: ٩٧-٩٨) فعُدو الوسيط عدو لطرفي الرسالة المرسل والمستقبل، وهذا ما أخبرت به الآيات على تكرار نزولها.

وقد اختلف بهذا طبيعة الوحي الإسلامي؛ فالسمة الأساسية والمميزة له أنه ليس إصغاءً، ولكن استقبال الرسول لرسالة سماوية من الإله عن طريق وسيط أو وسطاء.

ومن خلال فهمنا للآيتين السالفتين نرى أن النبوة تقوم على الإلتباع، غير المشروط بشروط، ولابد أن النبوة وحدها لا تأتي برسالة أو تشريع جديد، وعلى هذا كان محمد نبياً إذ أتبع تعاليم الديانتين السابقتين (اليهودية - المسيحية) كما مر بنا في وجوه التشابه بين القرآن والتوراة، ومن هنا فقد أكد الفقهاء على أن شرع من قبلنا شرع لنا، ثم زاد محمد عن مرتبة النبوة بأن بعث برسالة جديدة ومعها كتاب موحى إليه (سبق الحديث عن مصدره) يهيمن على ما قبله ويضيف إليه بعض الأبعاد الجديدة، وفي هذا يقول الوحي: " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبِّئُكُمْ فِيهَا مَا تَكْتُمُونَ " (المائدة: ٤٨) ويؤكد الوحي في أغلب الآيات أن سبب نزول كتب جديدة ووحى جديد هو اتباع أصحاب الرسائل الهوى المضل والمضلل والذي يُخْرِجُ الأمور عن صوابها وعن جادة طريقها، ومن هنا فإن الرسالة الأخيرة ضمنت لنفسها طرقاً أخرى للحفاظ من الأهواء فقال الوحي: " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " (الحجر: ٩)

غير أننا لأسباب سياسية وجدنا هناك اختلافات عديدة في الذكر القرآني بين الفرق المتصارعة من شيعة وخوارج وأهل بيت وأهل خلافة وملك وغير هذا، وكلّ يدعي أنه وحده يفهم الوحي جيدا.

والوحي باعتباره كتاباً مقدساً لم يكن بدعاً على الديانات السماوية؛ فقد عرفت البشرية الكتب المقدسة من قبل، ولعلها عرفت قبل التنزيل الإلهي بمئات السنين، كما نجد ذلك في بلاد الهند حيث كتب الفيذا الهندية، وفي مصر القديمة حيث كتاب الموتى المصري والبرديات المصرية، وتلك الكتب

جميعها تعتبر من أقدم الكتب المقدسة التي وصلت إلينا.

وفي بحثه السالف الإشارة إليه أكد الدكتور محمد عمارة أن اللغة التي نزلت بها التوراة هي الهيروغليفية وهي تعني في مجال استخدامها المصري القديم تعني الكتابة المقدسة، وكذلك فإن السنسكريتية تعني الكلام المقدس. أي أن تلك اللغات تقديست بسبب وجود ما بها من تعاليم لم تدع أنها جاءت عن طريق وحي أو رسالة سماوية، فالباحث لا يعتمد أن الفراعنة مثلاً وهم - آلهة أو أنصاف آلهة- لم يوحوا بشيء للناس، بل كتب تلك الكتب الكهنة وهم طبقة المفكرين، أي أن تلك الكتابات المقدسة جهد بشري في الأساس، وهذه الأسفار قديمة قدم التاريخ البشري، يتحدث ول ديورانت عن أسفر الأوبانيشاد فيقول: "لو استثنينا التنف التي خلفها لنا بتاح حوتب (المصري) في الأخلاق، كانت أسفار الأوبانيشاد أقدم أثر فلسفي ونفسي موجود لدى البشر، ففيها مجهود بذله الإنسان دقيق ودءوب، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب محاولاً أن يفهم العالم وما بينهما من علاقة، إن أسفار الأوبانيشاد قديمة قدم هومر، ولكنها كذلك حديثة حدائثة كانط." (١)

وبالنسبة لقارة آسيا التي تحدث عنها هيجل طويلاً في كتابه العالم الشرقي وتوقف عند الصين والهند وفارس الإمبراطورية المترامية الأطراف، فإن الفكر الديني هو المسيطر، وأهم ما ألاحظه حول هذا الفكر الديني استقراره، حيث سيطرت الأوبانيشاد على فلسفة ديانة الهند لمدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً. وقال العلماء إن هناك صرفة من الله للناس أن يأتوا بمثل الكتب المقدسة، وهو ما قال به النظام والمعتزلة بالنسبة لوجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد سبق أن أشرنا لذلك.

وتعتمد الديانات الهندية عدة لطرق لتحقيق الوحدة المتكاملة مع براهمان اللانهائي هو اتباع طريقة اليوجا وهي: التحكم في النفس، السيطرة على الحواس، التأمل، التركيز، التفكير العميق، الأخذ بالموضوع. وقد أخذ ولتر ستيس أغلب مادته العلمية في كتابه التصوف والفلسفة من الكتب الهندية القديمة والعادات اليومية لتصرفات الناس .

ومن مكرور القول أن هناك تشابهات متعددة بين الكتب المقدسة وقد ناقشناها سلفاً وأورد بعض الأمثلة هنا:

تشابه القرآن مع البهاجافاد- جيتا الهندية، في الحث على القتال، حيث:
جاء في البهاجافاد - جيتا الهندية أن: " الحكيم الحق يجب ألا يحزن لا على الأحياء ولا على الأموات؛

١- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمود، محمد برهان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ج٢، ص٢٠٢-٢٠٣، مقبسة من كرشنا ومور ، الفكر الفلسفي الهندي، ص٢٠٣-٢١٠

لأن الروح تنتقل من جسد إلى آخر، وهي لا تُنفى بالقتل؛ لأنها أزلية أبدية، ومن ثم فإن الروح لا تموت، ثم إن المحارب المدافع عن الحق إن قُتل دخل الجنة، وإن انتصر فالنتيجة هي مملكة يستحقها فعلاً.

وهنا نلاحظ تشابهاً بين الحجتين السابقتين للحث على القتال من أجل الحق في البهاجا فاد - جيتا، وبين الحجتين اللتين يطرحهما القرآن، أما حجة القرآن الأولى في أن الذي يُقتل في سبيل الله لا يموت، بل هو حي عند ربه يرزق وينعم، يقول القرآن الكريم: " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ " (آل عمران: ١٦٩-١٧٠)

والهند تؤكد على نظرية تناسخ الأرواح، غير ما يؤكده القرآن الكريم، ولا نقول بوجود تأثير أو تأثير بينهما، وإنما فقط يوجد تشابه، فمحمد لم يطلع على اللغة السنسكريتية.^(١)

كما توجد مظاهر أخرى للتشابه بين تلك الديانة الهندية القديمة والنصرانية في وجوه عدة منها أن: "كرشنا هو تجسيد للإله فيشنو، مثلما المسيح هو تجسيد الله، وسبب التجسيد في الحالته هو إنقاذ وخلص البشرية، وإذا كان كرشنا، وكان كرشنا يقول لأرجونا "ذاتي الخاصة تدعم الخلائق وتساعدنا دون أن تتعب فيها" هي تجعلها تعيش، "فإنه يمكن أن نقارن قوله بمبحث القديس توما الأكويني "الله في كل الأشياء كسبب كينونة كل الأشياء" زد على ذلك أن فيشنو محبة: "أنا في المخلوقات تلك المحبة التي ليست إلا الخير"، وكذلك فإن الله محبة في المسيحية"^(٢).

نستنتج من ذلك أن الحب الإلهي يمثل جوهر تعاليم كرشنا مثلما يمثل جوهر تعاليم المسيح في الأناجيل الحالية، فاللغة الوحيدة التي تجمع بين الله والإنسان هي الحب.

ولعل في هذا القول المزيد من الصوفية، وهي معتمدة كلية في التفكير الهندي والحالة الدينية التي تعبر عن التدين هي اليوجا، ولعل الصوفية تحتاج إلى سفر خاص بها، يفصل أبعادها ويضيء جنبات الإظلام عندنا في وجوه التعريف بها .

هكذا وجد التشابه بين الديانات وفي الكتب المقدسة سواء السماوية أو البشرية، وقد سبق وقلنا

١- د محمد عثمان الخشت للوحي معاني أخرى، ص٩٥
٢- المصدر السابق ص٦١

إن مرد ذلك لوجود الرغبة في الوصول إلى الدرجة الفضلى للعبادة ولإعمار الأرض، ومن يُصدر التشريعات الدينية للناس سيختلف عن إصدار التشريعات السياسية^(١).

وقد كانت هناك حروب بين الرسول وبني إسرائيل اليهود في المدينة وخيبر، وقد كانوا مختلفين في الوحي والتصديق به، فكما أن محمداً(ص) كان يصدق بما أنزل على موسى وغيره من الأنبياء، فإنه كان يؤمن بنصوص قرآنية كثيرة بأنهم قد حرفوا الكتاب وصار تبعاً لأهوائهم المتبدلة والمتغيرة^(٢)، وأهل الكتاب لم يعيروا هذه الآيات انتباهاً، فلا يستند وحي كتب بني إسرائيل على تعليم نبي مؤسس واحد بعينه، بل ينمو فهو مطرداً خلال خمسة عشر أو عشرين قرناً محمولاً على أجنحة التاريخ. وأمكن تمييز مراحل النبوة داخل العهد القديم، في عشر مراحل حتى يوحنا المعمدان. ومن ثم فالقول عن تحريف الكتاب في الوحي الإسلامي لا يشكل خطورة عندهم، بل يشكل ضيق فهم من الرسول لأنه لم يفهم أن التغيرات كانت تطورات وليست تغيرات، وبينهما بون شاسع.

نخلص من هذا كله إلى القول بأن الوحي له معانٍ متغيرة بحسب نوع الدين وطبيعته، وأنه ممكن عقلياً وفلسفياً وفكرياً، وأن السبب الحقيقي في إنكار الدين هو إنكار الوحي وقد لفت الوحي القرآني الانتباه إلى هذه الإشكالية حين قال: "وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ" (الأنعام: ٥٣) وكذلك قوله تعالى: "أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوؤُوا عَدَابًا" (ص: ٨) وكذا قوله تعالى: "أَلْفَيْ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ" (القمر: ٢٥) وغيرها كثير، وكان هذا التأكيد القرآني على أن القرآن وحي من الله عبر الملاك جبريل على قلب الرسول ضرورة لإزالة الريب والشكوك في قلوب المشككين والمناوئين، وقد ضرب بكل هذا عرض الحائط في الصراعات السياسية، وقد تأكلت الأمة الإسلامية من الداخل، ولليوم تتأكل حتى صارت كغثاء السيل تماماً بتمام.

١- هناك فروق واضحة وحلية بين التشريع السياسي والتشريع الديني العتيق، السياسي يكون بيد البشر ومتغير ومتحد بحسب حاجات الناس المتغيرة، هتلاً لنظام الحكم في الدولة الزراعية سيغير عن الحكم في الدولة الصناعية والتجارية، والدولة الحديثة التي تعتمد على المؤسسات في إدارة شؤون البلاد، وقد رأينا أن شكل الولايات المتحدة اعتمد لإعلاء الرق في عام ١٨٦٠، فيما جنوب الولايات المتحدة الأمريكية لم تر ذلك، بسبب ظروف وطبيعة الحياة الاقتصادية، وتشتت الحرب بينهما، وتم في النهاية القضاء على الرق، وبقي التمييز العنصري قائماً - ربما لليوم - وهذا التشريع السياسي يتوقف على عوامل عدة

أما التشريع الديني فهو لا يتأثر بحسب طبيعة الظروف والحياة، فلم تغير التوبة اليهودية ولا النصرانية بسبب التقدم العلمي وتوافر التقنية والمعلوماتية، ولكن تغير التشريع الديني في العالم العربي والإسلامي بحسب ظروف التطور السياسي، ولا يقصر الأمر فقط على الخلافات التي قامت عقب موت الرسول مباشرة بشأن سفيقة بني ماعة أو عقب مقتل عثمان، بل إن الأعرام التي نلت وفاة يزيد بن معاوية كتلت أئمة الأعرام في حياة المسلمين فقد "مضى على الأمة الثتان وعشرون سنة (٦٤-٨٦) وهي مصيدة بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقل بعضهم بعضاً كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يهتمون عاقبة ولا يرعون الله في أمتهم عينا كأنهم لم يقرأوا كتاب الله ولم يعلموا المنثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول في عمارها ولا لحظي ولا أمرها من نعمة تلك الحوادث؛ فيهم أروا أن ينسوسها بالعنف ويكرهوا على الطاعة إكراها من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشيء مما تحسه" محمد الحصري، الثورة الأموية، المكتبة البريقية، د، ص ٤٦

وليرى نطل الخلافات السياسية قائمة غير أن الأئمة في العالم العربي الإسلامي هو إدخال الدين في منظومة الحركات السياسية، فكان فريق يزيد أن يطرح الوحي كما يشاء لسانده مذهبه الذي يحق له إمكانية الوصول للسلطة وهذا ما نؤكد عليه في هذا السطر

٢- انظر في ذلك (القرعة ١٩٧٥، الساسة، ٤٦، المائدة ١١/١٣)

الوحي ووجوهه:

- هناك طريقة الكلام المباشر من الله إلى الإنسان، عن طريق الاستماع إلى كلام الله دون رؤيته، فقد اصطفى الله موسى وكلمه تكليماً دون أن يرى موسى الله. قال تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ" (الشورى: ٥١) وأشار إلى الحديث مع موسى قائلاً: "وَرَسُولًا قَدْ قَضَيْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا" (النساء: ١٦٤)

وتخبرنا سورة المائدة عن حوار دار بين الله تعالى وعيسى بن مريم، ولم نفهم كيفية هذا الحوار الذي دار، فقد نقله القرآن بالحكاية والحوار يقول: "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُحْنَانِكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (المائدة: ١١٦-١١٧)

- وهناك طريقة أخرى يحل فيها الإله في الإنسان ويتقمص فيها روح الله روح إنسان مختار(روح الرب نطق في بكلماته على لساني) مثل حالة النبي صموئيل. وهذه الطريقة لا نقبلها؛ لأننا نرفض - كمسلمين- حلول الإلهي في الإنساني. لكننا نؤمن بوجود نوع من الاندماج بين الوسيط وهو جبريل والنبي محمد.

"في المسيحية نجد أن المسيح هو كلمة الله أو هو الله نفسه متجسداً في بشر، فالوحي هنا ليس فقط الكلمات والعبارات التي يقولها يسوع، بل الوحي هو يسوع نفسه، فهو كلمة الله تعالى، ولذلك نجد أن الأناجيل هي وصف لحياة يسوع في الأيام الأخيرة لحياته، وبذا صار يسوع إلى كتاب مقدس مقروء، مما كشف عن أهمية وجود نص مقدس لاستمرارية الدين." (١)

في المسيحية نجد أن الكلمة صارت بشراً، أما في الإسلام فإن الكلمة تحولت إلى كتاب. ولا يتحدث محمد عن التداخل الإلهي مع البشر - حاشاه- فمحمد رأى وسيطاً هو جبريل جاء من عند الله الذي قرأ عليه رسالة الله وكلامه (القرآن الكريم) الذي صار عند المسلمين حقيقة إلهية مطلقة، فهو كلام الله الحرفي المنزل "إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى" (النجم: ٤)(آل عمران: ٧) (النساء: ١٠٥)

١- د محمد عثمان العشت للوحي معاني أخرى، ص ١١٦

والوحي في الاصطلاح الإسلامي يتسق مع معناه اللغوي في العربية، حيث نجد أن معنى الوحي الإعلام في خفاء، والإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل المجاز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة^(١)

مما سبق يتضح أن الوحي له مظهر يختلف من دين إلى آخر، وباختلاف المظهر يختلف المضمون الموحى به من دين إلى آخر، كما يختلف المضمون عبر الوسيط، فقد زعمت اليهود أنها لا تقبل قرآن محمد لأنه جاءه عبر عدوهم الذي كان يأتهم بالعذاب وهو جبريل عليه السلام.

أقسام الوحي في القرآن الكريم:

١- ما يبلغه الله إلى أنبيائه. كما في قوله تعالى: "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا" (النساء: ١٦٤)

٢- وحي بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام، وسمي وحياً لأن الملك أسره على الخلق وخص به النبي المبعوث إليه، كما في قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلًّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وِرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" (الشورى: ٥١)

٣- وحي إلى الأمم بوساطة الرسل، قال تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ" (الأنبياء: ٧٣)

٤- الأمر: مثل قوله تعالى: "يَأْنُ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا" (الزلزلة: ٥) أي أمرها في قول المفسرين ومثل قوله: "وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا" (فصلت: ١٢) أي أوحى فيها ما أراه وما أمر به فيها، وقوله: "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَشَهِدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" (المائدة: ١١١) أي أمرتهم وهو أمر تكوين.

٥- التسخير: مثل قوله تعالى في قول بعض المفسرين: "يَأْنُ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا" (الزلزلة: ٥) أي سخرها.

٦- الإشارة: مثل قوله تعالى: "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا" (مريم: ١١) وقال الكلبي وقتادة وابن منبه: أوحى إليهم أي أشار إليهم. وقال القتبي: أوما.

٧- الكتابة: مثل قوله تعالى أيضاً في رأي بعض المفسرين: "فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا" (مريم: ١١) قال مجاهد: كتب على الأرض، وقال عكرمة: كتب في كتاب. والوحي في كلام العرب الكتابة.

٨- الإلهام: فالإلهام من أنواع الوحي: مثل قوله تعالى: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" (النحل: ٦٨) ومنه على قول بعض المفسرين: "وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى

١- الزاوي الأصبهاني، المفردات المكتبة التوقفية، ٢٠٠٣، ص ٥٢٠

الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي“ (المائدة: ١١١) أي ألهمتهم. وقال بعضهم: أتيتهم في الوحي إليك بالبراهين والآيات التي استدلوا بها على الإيمان، فأمنوا بي وبك، ومثل: “ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ“ (القصص: ٧) أي ألهمناها في قول بعض المفسرين. ونحن لا نرى هذا، فقد شملت الآية العديد من الأخبار مرتبة ومسلسلة ولها تدرج زمني وخطوات محددة وثيقة ومأمونة، فلا يكون الوحي - كما أرى بهذا المعنى، بل يكون بمعنى أعلمناها. وهنا نقول: قد يكون الإعلام جزئياً على مراحل للاطمئنان ثم جاء الإخبار عنه هنا كلياً كعادة القرآن؛ إذ يُفَضَّلُ في موضع ويُجَمَلُ في آخر.

٩- القذف في القلب: ففي قول بعض المفسرين أن قول الله عز وجل: “ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ“ معناها هنا: إلقاء الله في قلبها. وما بعد هذا يدل عليه والله أعلم - على أنه وحي من الله على جهة الإعلام للضمان لها: “ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ“. وقيل إن معنى الوحي هنا الإلهام، وجائز أن يلقي الله في قلبها أنه مردود إليها، وأنه يكون مرسلأً، ولكن الإعلام أبين في معنى الوحي ههنا.

١٠- يسر أو يوسوس: مثل قول الله تعالى: “ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْكَوَالِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ“ (الأنعام: ١١٢) معناها يسر بعضهم إلى بعض، وقيل: يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس. وسمي وحيأً لأنه إنما يكون خفية. والمعنى نفسه في قوله تعالى: “ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ“ (الأنعام: ١٢١)

١١- الإبلاغ: مثل قوله تعالى: “ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا“ (طه: ١١٤) أي إبلاغه. وكان يعجل بذكر الوحي ويحرك لسانه به، إذا نزل عليه من حبه له، ومخافة أن ينساه، فنهى عن ذلك حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض، فنزلت الآية.

أرى من خلال العرض السابق وغيره من سياقات متعددة في القرآن الكريم الذي بين أيدينا، أن القرآن قد شُغل في الكثير من المواطن بالحديث عن القرآن، والتأكيد على قدسية النص والتشديد على نسبه لله تعالى، وهذا قد يعود في اعتقادي إلى المناخ العام الذي نزل فيه القرآن في مكة وما حولها.

المبحث الثاني: حجية السنة والقرآنيون:

قال تعالى: “ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ“ (النحل: ٤٤) وقال تعالى: “ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ“ (النور: ٦٦) وقال

تعالى: " وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " (الشورى:٥٢) وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها عز وجل وقال تعالى: " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ". (الحشر:٧)

روى أبو داود عن المقدم بن معد يكرب عن رسول الله أنه قال: " ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطعة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه" (١)

قال عبد الله بن عمر بن عبد الرحمن الخطابي: قوله: أوتيت الكتاب ومثله معه يحتمل وجهين من التأويل:

أحدهما: أن معناه أنه أوتي الوحي الباطن غير المتلو، مثلما أعطى من الظاهر المتلو. ثانيهما: أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى، وأوتي من البيان مثله، أي أذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص ويزيد ويشعر ما في الكتاب، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن.

وهذه أقوال مردودة وإن ذكرها الإمام القرطبي، فالحديث عن أن للقرآن ظاهراً وباطناً من كلام الشيعة، وهم لم يقولوا إن الرسول يعلم الباطن والظاهر، لكنهم قالوا إن الأمة وحدهم لديهم علم الباطن والظاهر، وهذا كله كلام مردود، مع تحرّزنا الشديد من الخوض في مراد الله بكلماته، وإمّا القول هنا عن إنغلاق الفهم البشري للقرآن بحجة قصر فهمه على طبقة معينة وهذا يشبه طبقة البراهمة في الهند، ولعل نشوء تلك الأفكار جاء موافقاً لمثل تلك الفلسفات الشريفة القديمة.

والآيات التي في القرآن تتحدث عن التشديد على أن الرسول موحى إليه هذا القرآن وتطالبه بالتبليغ كثيرة، وبالقطع إن كان الرسول هو البشري الوحيد في الجزيرة العربية - والعالم - الذي اصطفاه الله تعالى برسالاته حيث قال: " وَإِذْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ " (الأنعام:١٢٤) وقد ناقشنا المناقصة والحدق على ذات الرسول في أن يوحى إليه من بينهم،

١- أخرجه أحمد في مسنده ١٣٦/٤، وأبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة ٢٠٠/٤ رقم ٤٦٠٤

ومما لا شك فيه أن الله يطلع رسوله على الكثير من التشريعات، فالمعروف لدى علماء القرآن الذين يؤمنون بالنسخ في القرآن الكريم أن هناك نوعاً من النسخ يسمى نسخ السنة للقرآن، ونوع آخر يسمى نسخ القرآن للسنة، وهذا يعني أن هناك سنة قرآناً، وقد يختلفان في بعض التشريعات فينسوخ أحدهما الآخر، والمشهور نسخ القرآن بالقرآن ونسخ السنة بالسنة، وهذا قيل عنه إنه التدرج في التشريعات التي تخالف ظاهر ما كانت عليه العرب إبان الدعوة الإسلامية، ورغبة الدين الإسلامي في تطهيرهم من تلك الأشياء.

غير خاف أن السنة تحتل مكاناً متميزاً من التشريع الإسلامي، ولا ينكرها إلا جاحد.

قد شنَّ البعض حملة على حجية السنة في التشريع الإسلامي، وقد جمع الحجج وفندها ورد عليها الأستاذ الدكتور: عبد العظيم المطعني في كتابين متتالين نشرهما المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وسأورد أهم تلك الشبهات وليرجع إلى هذين الكتابين من أراد الاستزادة.

يؤكد الدكتور المطعني أن سبب الحملة على السنة النبوية ما يأتي:

أولاً: مركز ابن خلدون للدراسات، ووصفه أنه وكر استعماري جديد.

ثانياً: النظام العالمي الجديد.

ثالثاً: استثمار آثار العنف.

رابعاً: الصحف الجديدة.

ويؤكد الدكتور المطعني أن غرض هؤلاء جميعاً تركز في محورين هما:

المحور الأول: الدعوة إلى إلغاء الفقه الإسلامي؛ لأنه في نظرهم فقه متخلف رجعي.

المحور الثاني: الدعوة إلى إلغاء السنة النبوية؛ إما لأنها مزورة عن رسول الله، وإما لأنها ليست من الدين في شيء.^(١)

يفند الدكتور المطعني الشبهات المثارة ويقسم الأهداف المرادة من تلك الشبهات إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي:

القسم الأول: شبهات يراد بها مجرد التشكيك في صحة الأحاديث النبوية، وفي نسبة صدورها من النبي.

القسم الثاني: شبهات يراد بها محو السنة من الأساس.

القسم الثالث: أرادوا منها عزل السنة عن حياة المسلمين حتى وإن صحت الأحاديث المروية فيها.^(٢)

١- د. عبد العظيم المطعني، الشبهات الثلاث المثارة لإلغاء السنة النبوية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠١٠م، ص ٤-١٢ تصريف شديد(لمحصول)
٢- المصدر السابق، ص ١٢

أهم تلك الشبهات :

- ١- النهي النبوي عن كتابة الحديث، وهي شبهة قديمة لأن النبي أمر بذلك في مرحلة التدوين الأولى؛ خشية الالتباس بين القرآن والسنة، ثم أذن بعد ذلك بالتدوين.^(١)
- ٢- ادعاء النهي القرآني عن الإيمان بالسنة والعمل بها، وهي شبهة تناقض القرآن في الكثير من الآيات.
- ٣- منح الخلفاء رواية الحديث وترديده، والذي عليه العلماء الثقات أنهم لم يمنعوا بل رفضوا الإكثار من الرواية؛ لئلا يُشغِل ذلك الناس عن القرآن فحسب.
- ٤- تشدد الخلفاء في الرواية وحبس المكثرين منها، كان هذا على سبيل الأمانة العلمية والتحوط فقط.
- ٥- تأخر تدوين السنة، يرد عليها أحاديث الإذن بكتابة السنة.
- ٦- إحراق كتب بالسنة، حدث بسبب المغالطة وخشية التقول على الرسول(ص) ما لم يقل. (من باب الورع)
- ٧- السنة دونت في قصور الأمراء. لا يستحق عناء الرد.
- ٨- الرواية بالمعنى دون اللفظ، وهو مأخوذ - فيما يبدو لي- من كتب علماء النحو الذين قالوا ذلك، وهو مردود على علته.
- ٩- اقتحام السنة حواجز الغيب، كالتبشير بالجنة، وأقول: إنه توقيف من الله أو استنتاج جيد من الرسول، وقد أعلمه الله بعض الماضي والحاضر والمستقبل.
- ١٠- رواة السنة بشر غير معصومين، ولهذا فهناك علم الجرح والتعديل.
- ١١- ندرة الصحيح في محفوظ البخاري، وهذا له لا عليه؛ إذ فند الصحيح من غيره وأثبتته، ولذا سُمي كتابه الصحيح.
- ١٢- البخاري ومسلم لم يسلموا من النقد، ولكنهما اعتمداً شروطاً كافية للتدليل على صحة الحديث، وما خالف تلك الشروط، كان موضع النقد فقط.
- ١٣- السنة ليست وحياً، ولكنها تخرج من ذات المشكاة.
- ١٤- ندرة الاستدلال بالحديث عن أبي حنيفة، وإن يكن فليس أبو حنيفة حجة على الرسول بل العكس، وأبو حنيفة كان يقدم الحديث (النص) على الرأي.
- ١٥- ضياع خمسمائة خطبة نبوية، وهذه تشبه قول الشيعة (بعضهم) ضياع ٥٠٠ آية قرآنية تدم بني أمية.
- ١٦- مصدر السنة ليس معصوماً، وهي شبهة مكررة .

١٧- الطعن في رواية السنة، علم استحدثه العلماء للتثبت من كل راوٍ. (الجرح والتعديل)

١- قد ذهب فريق من العلماء أن الرسول مع تدوين، وفريق آخر أنه أباح لهم التدوين، والعلماء يوافقون بينهما بالقول بأنه مع أولاً ورفض ثانياً (قول نسخ قولاً آخر)

- ١٨- أُمّية أبي هريرة وتأخر إسلامه، وقيل إنه كان يُصرع، وقيل عنه كثيراً غير ذلك، وفند العلماء ذلك كثيراً فلا داعي للإطالة. (ثم إنه كان يحفظ ولم يكن يكتب، فالعلم عنده علم صدور لا علم سطور)
- ١٩- نقد السند دون المتن، وهذا باهت، وغير صحيح.
- ٢٠- ندرة المتواتر في السنة، من يقول هذا جاهل، فللحديث طرق معروفة في كتب الحديث يعرفها علماءه، لا المنكرين له.
- ٢١- ظنية الحديث.
- ٢٢- هداية السنة ظرفية ليست دائمة.
- ٢٣- اليوم أكملت لكم دينكم.
- ٢٤- الاكتفاء بالقرآن عن السنة .
- ٢٥- عدم الاعتداد بالسنة في الدرر اللغوي.
- ٢٦- مخالفة السنة للواقع المشاهد.
- ٢٧- مخالفة السنة للعقل.
- ٢٨- مخالفة السنة للقرآن.
- ٢٩- الوضع في الأحاديث.
- ٣٠- جامعو السنة كتبوها مكرهين. (هذه الشبهة معتمدة على ترجمة نصوص خطأ)
- ٣١- السنة لا تستقل بالتشريع.
- ٣٢- منع العمل بأحاد الحديث.
- ٣٣- السنة ليست حجة في الدين.

يقول الإمام القرطبي: “ جعل الله إلى رسوله بيان ما كان منه مجملاً، وتفسير ما كان منه مشكلاً، وتحقيق ما كان منه محتملاً، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه، قال الله تعالى: “ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ” (النحل/٤٤)

في البيان منه صلى الله عليه وسلم: على ضربين. (١)

بيان لمجمل في الكتاب، كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، كبيانه مقدار الزكاة ووقتها وما الذي تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال الرسول إذ حج بالناس: “ خذوا عني مناسككم ” (٢)

وقال: “ صلوا كما رأيتموني أصلي ” (٣)

وروى سعيد بن منصور: حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن مكحول قال: القرآن أحوج إلى

١- القرطبي الجامع لأحكام القرآن، مج ١، ص ١٦٢
 ٢- أخرجه مسلم في كتاب الحج ٩٤٣/٢ رقم (١٢٩٧)
 ٣- (الجزري/١١٧)

السنة من السنة إلى القرآن. وبه عن الأوزاعي قال: قال يحيى بن أبي كثير: السنة قاضية على الكتاب والكتاب ليس قاضٍ على السنة.^(١)
ومن السنة: تحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها^(٢)
وتحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع... الخ.

قد لا نستقصي طويلاً هذا الأمر، فهو مكرور - كأغلب كلامنا وموضوعاتنا- وأرى أنه ليس وليد اليوم، بل وليد اللحظة الجينية لبءة البعثة ونزول الرسالة، فقد قال الناس أينزل الذكر عليه من بيننا؟ كيف يختار الله هذا الفقير الضعيف دوننا، ونحن ما نحن في المال والقوة؟

فالأمر أولاً وأخراً أنهم نَفَسَوا عليه، وكانت الصراعات التي تلي ذلك صراعات على الحكم وهي صراعات قبلية صريحة وقد صارت الخلافة - في غفلة من الزمان لأبي بكر الصديق^(٣) - في تيم ثم في عدي، ثم في بني أمية، ثم في بني هاشم ثم... ثم..

ولليوم يظل الحكم ذات مرجعية دينية، وقد قيل: إن السلطان يثبت بالدين، والدين يحكم بالسلطان. وأخبر فقهاء السلطان أن: الله يثبت بالسلطان ما لا يثبت بالقرآن، وهذه كلها أوهاام فقهاء السلطان.

فمن يريد إنكار الوحي ويثبت أنه كان نتيجة صرع مرضي واختلاج عقلي، ومن يريد إنكار حجية السنة النبوية في التشريع الإسلامي، إنما يريد القضاء على الدين نفسه، والناس اليوم صارت لا في جاهلية كما يدعي الإخوان المسلمون، وأنهم سيخرجونهم من تلك الجاهلية، وإنما الناس في جهل عن الدنيا وعن الدين، ولعل أهل الحكم يريدون هذا الجهل المتفشى كمرض يُلْهي الناس عما يحدث في الليل من تدبير الأمور، وليتهم يصلحون لسياسة الناس، بل أمرهم كما قال أبو العلاء المعري:

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مج ١، ص ١٣٠
٢- (البحاري ١/٢، ١٠٨٢/٢ رقم ١٤٠٨)

٣- يروى في جميع الأمثال هذه الحادثة " إن أول من قال " إن البلاء مُؤَكِّدٌ بالسلطِقِ أبو بكر الصديق ، فيما تكلم به عباس ، قال حدثني علي بن أبي طالب (رض) أنه لما أُمِر رسول الله أن يعرض نفسه على القتال خرج وأنا معه وأبو بكر ، ففعلنا إلى محاسن من محاسن العرب ، فقدم أبو بكر وكان نشابة فسلم فرموا عليه السلام ، فقال: ممن تقوم ؟ قلوا من ربيعة ، فقال لمن هاتما أدم من لهارميا؟ قلوا من هاتما العظمى ، قال فأي هاتمتا العظمى أنتم؟ قلوا: دخل الأكر، قال أفسكم عزوف الذي يُقال له لا حُرُّ بوندي عرف؟ قلوا : لا، قال أفسكم يستلم ذو اللراء ومشي الأحياء ؟ قلوا : لا ؟ قال أفسكم حسان بن مِرَّة حامي النار ومبع الحار ؟ قلوا : لا، قال أفسكم الحورقان قَتَلُ الملوك وسالها نفسها؟ قلوا : لا، قال أفسكم المرذلف صاحب العمامة للفرقة؟ قلوا : لا، قال - أفاتم أحوال الملوك من كنتم؟ قلوا : لا، قال - فاستم ذملاً الأكر ، فتم ذم الأصرع ، فتم إليه علام قد نقل وجهه يقال له دخل قل.

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

هاذا بانك قد سألنا فلم نكتفك بشئ فمن الرجل أنت؟ قال - رجلٌ من قريش ، قال - يخ يخ أهن الشرف ورياسة ، فمن أي قريش أنت ؟ قال - من تيم من مِرة ، قال - أمكت والله الراس من صفاء الثراء، أفسكم قسبي بن كلاب الذي جمع القتال من فخر وكان يدعي مُجَمَّعاً؟ قال : لا، قال أفسكم هشام الذي هشم الثريد لقرومه رجاله مئةً مُشْتَبِهُونَ عَجاف؟ قال : لا، قال أفسكم شيبه الحمد مُطعم طير السلام الذي كُن في وجهه قمراً يصيبه ليل الظلام الناجي ؟ قال : لا، قال أفس المغيصين بالأس أنت؟ قال : لا، قال أفس أهل الندوة أنت؟ قال : لا، قال أفس أهل الزمادة أنت ؟ قال : لا، قال أفس أهل الحليلة أنت؟ قال : لا، قال أفس أهل الشفاية أنت ؟ قال : لا ، قال واحتب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله (ص)، فقال دعني صانف ذرا لليل نأرأ يصدعه ، أما والله لو نيت لأخبرتك أنك من زمعات قريش أو ما أنا بداعل، قال قسم رسول الله ، قال علي قلت لبي بكر - لقد وقعت من الأعراسي على ناقعة ، قال أجل إن لكل طامة طامة ، وإن البلاء مُؤَكِّدٌ بالسلطِقِ " محمد بن أحمد بن إبراهيم الميزابي . مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة السنة للسعودية ، ١٩٥٥م ، ص ١٥٤ ، ويستناد من هذا إلى نكرة مثل أبي بكر الصديق في الجاهلية صانف في الإسلام الحاكم المطلق الذي في شؤون الجزيرة العربية يُشِيرُ الجيوش وتبنيها العتائم ، ويجمع القرآن في مصحف ، ويصير قرله وبعض أفعاله من الشريع

يسوسون الأمور بغير عقل فيفسد أمرهم ويقال ساسة
فأفٍ للحياة وأفٍ مني ومن زمن رياسته خساسة

هذا الزمن الذي انتهى إلى رياسة الخساسة، لا يتكتم على نفسه مصائبه، بل يُحشر الدين فيها
حشراً باعتباره عملاً من عبقرية محمد (ص)، جاء به فأسس دولة ومدنية وحضارة عظيمة وقد
ساهمت الأمم من حول الجزيرة في تطور وتقدم تلك الحضارة فلم لا يكون للمؤسس مثل ذلك الأمر
العظيم وقد انتشروا في العالم كله ؟

أقول: إن سبب عدم المضاهاة بين محمد والمؤسس أن محمداً كان يعمل في النور لأجل إخراج الناس
من الظلمات إلى النور، أما المؤسس فكان يعمل في الظلام لأجل إعادة الناس من النور إلى الظلمات،
وشتان ما بينهما من فروق.